خطبة صلاة الجمعة 22/ 11/ 2024 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(عزة النفس وعزة أهل المقاومة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر:10].

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: 139].

أخرج الإمام الترمذي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، فقال: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوْكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوْكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوْكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُف**».

عنوان الخطبة: **عزة النفس وعزة أهل المقاومة**

أيها الإخوة:

العزة والأَنَفةُ والحميَّة، والنَّخْوة، وإباء الضيم، والكرامة صفة النفوس الكريمة، وقد رأيتموها شاخصة في أهل المقاومة في غزة وفلسطين ولبنان وفيهم ما فيهم من الجراح.

والدناءة والخِسَّة، والمهانة والذلَّة، والصَّغار والهوان صفة النفوس الدنية الخسيسة وقد رأيتموها متجسدة في الصهاينة المجرمين.

يصيح المؤذن كل يوم خمس مرات منادياً (الله أكبر) مكبراً الله وحده، ويكبّر المسلم في حركات الصلاة كلِّها، ليوقن يقيناً لا يهتز أنّ كل متكبر بعد الله فهو صـــغير، وليرد هذا النداء الناس إلى الصـــواب كلما أطاشتهم الدنيا، ووضعتهم شهواتها.

يقول المسـلم في كل ركوع في صـلاته "سـبحان ربي العظيم" وفي كل سـجود "سـبحان ربي الأعلى"، فتتشرب روحُه إفرادَ رب العالمين بالعظمة والعلو.

فيربي الإسلام بذلك أبناءه على عزة النفس وأنفتها وإبائها.

إنّ عزة النفس عند المؤمن تأبى عليه أن يتّضِـــع في مكان، أو أن يكون ذَنَباً لإنســـان، أو أن يذل لصاحب جاه أو مال أو قوة أو سلطان.

إنّ عزة النفس عند المؤمن تمنعه أن يرضى بالضيم أو يسكت عن اغتصاب حقه.

إنّ عزة النفس عند المؤمن تنأى به أن يكون مستباحاً لكل طامع ومستسلماً لكل هاجم

إنّ عزة النفس عند المؤمن تدعوه للترفع عن السقوط في وحلِ المغريات أو الخضوع لذل الشهوات.

إنّ عزة النفس عند المؤمن تدعه متواضـعاً للخلق خاضـعاً للحق ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: 10].

لقي الإمام الثَّوري السَّيدة رابعة العدوية وكانت خشـنة الثَّوب، قليلة ذات اليد، فقال لها: يا أمَّ عمرو، أرى حالاً رَثَّة، فلو أتيتِ جارك فلاناً لغيَّر بعض ما أرى؟ فقالت له: يا سفيان، وما ترى من سوء حالي؟! ألستُ على الإسلام؟ فهو العزُّ الذي لا ذُلَّ معه، والغنى الذي لا فقر معه، والأُنس الذي لا وحشة معه، والله إنِّي لأستحيي أن أسأل الدُّنيا مَن يملكها، فكيف أسألها مَن لا يملكها؟! فقام سفيان معتذراً.

إنها عزة النفس.

جاء في سيرة ابن هشام: أنّ بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وذلك أنّ امرأة من العرب قدمت بجَلَبٍ لها، فباعته بسـوق بني قينقاع، وجلسـت إلى صـائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودي فقتله، وشدت اليهود على

المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون وسار إليهم رسول الله ﷺ بجنده حتى حاصرهم ثم أجلاهم عن المدينة.

فلم ترض عزة النفس عند رسول الله ﷺ وعند المسلمين أن تُدنَّس الأعراض أو تُنْتَهَكُ الحرمات أو يُسكَتَ على الضيم.

أيها الإخوة:

ما أشبه من يقبل الضيم ولا ينافح عن كرامته بالمطية التي يعتلي ظهرها الجميع دون تذمر؛ خضوعاً منها وطواعيةً، أو بوتد الخيمة الذي يتلقى الضرب على رأسه دون اعتراض، أو تأفف، وليس له إلّا أن يُضرب فينغرس في الأرض.

قال الشاعر العربي: (المتلمس الضُبعي):

ولا يُقيمُ على ضيمٍ يُراد به ... إلَّا الأذلانِ عِيْرُ الحيِّ والوَتَدُ

هذا على الخَسْفِ مربوطٌ برُمَّتِه ... وذا يُشَجُّ فلا يَرثِي له أحدُ

فذِلَّة العبد لعبدٍ مثلِه باطل لا ريب، والوضيع المستعبَد جاهل بقدْرِه، تحمَّل من الأوزار ما لا يطيق، وقد حرَّم الإسلام الذُّل وأوجب العزَّة، وأما ذِلَّة العباد لربهم ذِلَّة بالحق لا بالباطل، فإنَّ الأمر والنهي له، ومصاير العباد رهن مشيئته وطوع إرادته.

(إنَّ النَّاس يُذِلُّون أنفسهم ويَقبلون الدَّنيَّة في دينهم ودنياهم لواحد من أمرين: إمَّا أن يُصابوا في أرزاقهم، أو في آجالهم، والغريب أنَّ الله قطع سلطان البشر على الأمرين جميعاً -الآجال والأرزاق-، فليس لأحد إليهما من سبيل.

فقد أخرج البيهقي في الشعب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ الرِّزْقَ يَطْلُبُ الْعَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ**».

وروي في الطبراني شأن الأجَل والرِّزق: «**إِنَّ رُوْحَ القُدْسِ نَفَثَ فِي رُوْعِيَ: أَنَّ نَفْسَاً لَنْ تَمُوْتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا**».

وقال الله تعالى في شأن الرِّزق: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذَّاريات:22-23].

وقال في شـــأن الآجال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْـــتَأْخِرُونَ ســـاعَةً وَلَا يَسْـــتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:34].

من هنا يظهر أنَّ النَّاس في الحقيقة يستذلُّهم وهمٌ نشـأ في أنفس مريضـة بالحرص على الحياة والخوف على القوت؟

وبَذْلُ ماء الوجه طلباً للمال شَينٌ، وتهيُّب الموت وتحمُّل العار طلباً للبقاء في الدُّنيا على أيَّة صورة حُمقٌ، والنَّاس من خوف الذُّل في ذُلّ، ومن خوف الفقر في فقر) (خلق المسلم للغزالي).

أيها الإخوة:

بعزة نفس ترفضُ طفلة من غزة أخذ "الهدية المالية" إلا بعد إلحاح من شـاب، كان يوزع مبالغ بسـيطة على الأطفال في أحد مراكز الإيواء بمدينة رفح جنوب قطاع غزة.

ويرفض ذلك الطفل ذو التسعة أعوام أخذ شيء من الطعام قائلاً إنه صائم.

وفي مقطع مصـوّر يُظهر لحظة وداع مؤثرة بين شـاب فلسـطيني لعائلته التي اسـتشـهدت جراء قصـف الاحتلال الإسرائيلي منزلهم في قطاع غزة، ويظهر الشاب وسط المعزين، وهو يبكي حامدًا الله ومعلنًا رضاه بمشـيئته. يقول بعزة نفس وإباء: "راضـون بحكمك يا الله، ونحتسـبهم عندك شـهداء فتقبّلهم منّا وهم صائمون".

وبأنفةٍ لو وزعت على قومٍ لكفتهم جلست تلك المرأة في خان يونس جنوب قطاع غزة أمام فرن صنعته من الطين لتصـنع الخبز لتوفير المال اللازم لشـراء حاجيات أسـرتها الكبيرة بعد أن أنهكها النزوح تقول: عملت بهذا العمل لأنه عمل شـريف، وزوجي بقي في منزلنا في الشـمال، فإذا لم أعمل فمن من يصـرف علينا؟

إنها عزة النفس عند أهل المقاومة في فلسطين ولبنان.

لقد أوصى الإسلام المسلم بالعزَّة وهداه إلى أسبابها، ويسَّر له وسائلها، وأفهمَه أنَّ الكرامة في التَّقوى، وعلمه أن المسـلم الحق إذا اعتدى عليه أحد أو طمع فيه باغٍ كان انتصـابه للدِّفاع عن نفسـه جهاداً في سبيل الله، إقراراً للحقوق العامَّة والمثُل العليا.

في صـحيح مسـلم جاء رجل إلى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فقال: يا رسـول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «**فَلاَ تُعْطِهِ مَالَكَ**». قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «**قَاتِلْهُ**»، قال أرأيت إن قتلني؟ قال: «**فَأَنْتَ شَهِيدٌ**»، قال: أرأيت إن قتلتُه؟ قال: «**هُوَ فِي النَّارِ**».

فَلا تَرضَ بِمَنقَصَةٍ وَذُلٍّ وَتَقنَع بِالقَليلِ مِنَ الحُطامِ

فَعَيشُكَ تَحتَ ظِلِّ العِزِّ يَوم وَلا تَحتَ المِذَلَّةِ أَلفَ عامِ

أيها الإخوة:

(إنَّ القضاء يصيب العزيز والذَّليل، يصيب العزيز وله أجرُه، ويصيب الذَّليل وعليه وزرُه، فكُن عزيزاً ما دام لن يَفلَت من محتوم القضاء إنسان).

والحمد لله رب العالمين